٧٠ أبو العلا الحسينى سلطان العلماء

وفد من مكة المكرمة بعد أن وُلد فيها وعاش مقتبل حياته، ليعيش فى مصر بقية سنوات عمره، حتى جاوز المائة عام. وينتسب إلى آل البيت النبوى الشريف، فهو من أحفاد الإمام على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهما، وكان من الفقراء إلى الله، وليس إلى عباده.. هؤلاء الفقراء الذين يعرفون فى كل زمان ومكان بالأولياء الصالحين. اختار لنفسه مكاناً هادئاً على النيل بعيداً عن صخب الحياة الدنيا وضوضائها ليقيم عليه مبنىً صغيراً يتخذه له لا يبرحها أربعين عاماً... وعلى الرغم من ذلك فيتزاحم حول هذه الخلوة المريدون والأتباع.. ليكوِّن مجموعهم فيما بعد أهالى حى «بولاق أبو العلا» بمدينة القاهرة.

ذلك هو العارف بالله السلطان أبو العلا... الذى ذكره الإمام الشعرانى فى طبقاته فقال عنه: «كان رضى الله عنه من أكمل العارفين، وأصحاب الدوائر الكبرى، وكان كثير التطورات، ومكث نحو أربعين سنة فى خلوة مسدود بابها، ليس لها غير طاقة وكان مَنْ لا يعرف أحوال الفقراء يقول: هذا كيماوى سيماوى، وكان رضى الله عنه بريئاً من جميع ما فعله أصحابه من الشطح الذى ضُربت به رقابهم فى الشريعة».

وتستوقفنا فى هذه الكلمة الدالة للإمام الشعرانى عن السلطان أبى العلا أمور كثيرة، فى مقدمتها ثلاثة.

الأمر الأول: حول مسألة أنه عاش فى خلوة أربعين عاماً قضاها فى التعبد والبعد عن الناس ليتفرغ تماماً لعبادة الله وطاعته، أملاً فى أن يُنزله الله مَنزلة

أوليائه الصالحين وينال درجة من درجات أحبائه المكرمين. والحق أن هناك وسائل للتقرب من الله غير الاعتزال عن الناس والاستغراق تماماً فى العبادة فكما عرفنا أن الولاية ليست فى مجموعها اعتزال وخلوة، ولكنها أيضاً عبادة وعمل، ذلك لأن العمل يمثل فى شريعة الإسلام جانباً لا يُستهان به من عبادة الله، ولولا أن السلف الصالح من الصحابه رضوان الله عليهم والتابعين وتابعى التابعين عملوا وكافحوا وجاهدوا بل وقاتلوا فى سبيل الله.. لما قامت للإسلام أمة، هى خير أمة أُخرجت للناس، فلو أن هؤلاء ـ رضوان الله عليهم ـ اعتزلوا الحياة، وعاش كل منهم فى خلوة بقية سنوات عمره، لَمَا وصلَ الإسلام إلى ما وصل إليه من المدنية والحضارة.

لكن على أى حال لكلٍّ ظروفه. وربما كان الاعتزال والخلوة هما الوسيلة المثلى فى عصر هذا الرجل الصالح.

والأمر الثانى: أن السلطان أبا العلا كان غير مسئول عمّا يفعله بعض المتهوسين والمجاذيب من أتباعه، ممن يأتون بأعمال بعيدة كل البعد عن التفكير العقلى، وإلا فما معنى أن نرى حتى اليوم البعض يضم قبضته على الهواء ثم يخفى هذه القبضة فى ملابسه ليخرجها بعد ذلك ويفردها ولا شئ غير ذلك؟!! إن كل ما يصدر عن هؤلاء بعيد عن العقل. وكتاب الإسلام ـ القران الكريم، وهو كتاب للعقل، ودعوة صارخة لتحرير العقل من عقاله ـ يدعونا بعبارات تختلف فى أسلوبها، وتتفق فى معناها إلى استعمال العقل، ووزن كل شئ بميزانه.. وعلى هذا فكل مالايأتى عن طريق العقل، أو ما لا يحكمه العقل لا يعتد به..، فالعارف بالله السلطان أبى العلا برئ منه، وغير مسئول عنه، لأنه كان أعرف من هؤلاء وهؤلاء بتعاليم الإسلام، ومنها أن التفكير الصادر عن العقل يعد فريضة إسلامية.

الأمر الثالث: الذى نلحظه فى كلمة الإمام الشعرانى عن العارف بالله السلطان أبى العلا: هو اعتباره من الفقراء، وهذا حق وصدق، فالعارف بالله ـ وهو من الصوفية ـ يعد من الفقراء إلى الله، وليس إلى عباده، فالفقير إلى الله هو من يقبل على الله باطناً وظاهراً بأنواع القرابات والعبادات، ويعتمد عليه سبحان وتعالى، ويتوكل ـ دون أن يتواكل ـ فى أمر دنياه.

وهذا المعنى الذى سجله الإمام الشعرانى فى طبقاته عن السلطان أبى العلا.. لا يختلف كثيراً عن المعنى الذى سجله الأستاذ توفيق على حسن فى كتابه عن هذا الرجل الصالح حيث قال: «إن السلطان أبا العلا الحسينى رضى الله عنه، من العُبَّاد الزاهدين، والنُّسَّاك العارفين.. وصل فى المعرفة إلى درجة عالية، وفى الولاية إلى مكانة سامية.. أفاض الله عليه بكثير من أسراره، وخصه بوافر بره ونفحاته... اعتزل الناس ليتفرغ لعبادة ربه وخالقه، مكث أربعين سنة فى خلوته، وليس بالخلوة نوافذ غير طاقة يأتيه منها أكله وشربه بواسطة أتباعه ومريديه، وذلك ليبتعد عن شرور الخلق، ومظالم الناس. عاش رضوان الله عليه عمراً يزيد على المائة والعشرين عاماً.. قطعه كله فى طاعة الله وعبادته، فأكرمه الله بمنزلة أوليائه، ودرجة أحبائه، والله يصطفى من يشاء من عباده، ولا حرج، ويهب مَنْ يريد أسراره، ولا مانع. ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شئ قدير».

والكتابات الحديثة التى سجلت تاريخ حياة هذا الرجل الصالح تذهب إلى أنه ولد بمكة، ولكنها لا تذكر السنة التى وُلد بها، وإنما نكتفى بالقول أنه وُلد فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى، وأنه عاش مائة وعشرين عاماً، وتذكر أنه توفى فى عام ٨٩٠، أو عام ٨٩٥ للهجرة.

وكما لا تحدد هذه المصادر سنة الميلاد أو تاريخ الوفاة فإنها لا تحدد أيضاً السنة التى نزح فيها إلى مصر، ولا كيفية وصوله إلى عاصمتها، ولماذا اختار المنطقة التى بنى عليها خلوته والمعروفة الآن ببولاق.

ولكن هذه المصادر قديمها وحديثها تتفق على أن السلطان أبا العلا عاش المرحلة الأخيرة من حياته فى مصر، وتتفق أيضاً على أنه من آل بيت النبى ﷺ، وأن اسمه الحقيقى المسجل على ضريحه هو «الحسين أبو على».. الذى ينتهى نسبه إلى الإمام الحسين، ابن الإمام على والسيدة فاطمة الزهراء، رضى الله عنهم أجمعين، وأنه اختار مصر كغيره من العلويين طلباً للأمن والاستقرار، ورغبة فى العلم والمعرفة، حيث التقى فيها بعلمائها وأئمتها، وأخذ عنهم الكثير.

كذلك تتفق بعض الكتابات فيما بينها فترى أنه حل بمصر فى الأربعين من عمره، وأنه توفى فى العشرين بعد المائة، أى أنه بقى فى مصر ثمانين عاماً. قضى منها أربعين عاماً ـ هى الأخيرة من حياته ـ معتزلا فى خلوته.

وأنه من النبتة الشريفة المباركة التى نذرت نفسها لعبادة الله والدفاع عن دينه الإسلام.

وأن السلطان أبا العلا مدفونٌ بضريحه الموجود بمسجده ببولاق فى القاهرة، كما يسجل على مبارك فى خططه التوفيقية فى حديثه عن هذا المسجد والضريح قائلا: «وبداخله ضريح سيدى أبى العلا الحسينى» وفى كل عام يُقام له مولد أمام هذا المسجد، يفد إليه المريدون والأتباع من كل أقاليم مصر، تقديراً لما لهذا الرجل الصالح فى نفوسهم من الإعزاز والتقدير.

* * *